

حقيقة التضمنين في علوم العربية

الدكتور ابراهيم السامرائي
الاستاذ المساعد بكلية الآداب

ان اصطلاح « التضمنين » يدل على دلالات متباينة بحسب المادة التي استعمل فيها ، واستفادت منه • نراه في كتب البلاغة في « باب التضمنين والاقباس » ، وهو في مادة « العروض » في باب « عيوب القوافي » كما انه يدخل في أبواب من النحو مثل « باب حروف الجر » و « المتعدى واللازم » • ومن أجل ذلك فالباحث فيه ازاء موضوع واسع الاطراف ، كثير المسالك ، ولكننا اجتهدنا أن نفيه حقه ملتزمين بالايجاز في عرض الوجوه المهمة ولا سيما ما يتعلق منها بالمسائل اللغوية والنحوية ، ولأجل الوصول الى هذا الغرض رأينا ان نقسمه الى قسمين :

(١) قسم يعرض لمدلول هذا الاصطلاح في علمي البلاغة والعروض ، وهو قسم موجز نبين فيه مدلول الاصطلاح ، ثم نربط بين المدلول ومسألة التجديد والتقليد في الادب •

(٢) وقسم نعرض فيه لمدلول هذا الاصطلاح في النحو واللغة ، وهذا القسم هو الجانب المهم في هذا البحث • ويكشف هذا الجانب عن قضية ارتباك مدلولات الالفاظ في النصوص ، وعن محاولة علماء العربية لتبرير هذا الارتباك بوسائلهم المنطقية المعروفة •

(١) التضمنين في علمي البلاغة والعروض

يلمح الباحث في الادب العربي ظاهرة التقليد ، ولا يحتاج الامر الى دليل في هذا ، فظواهر التقليد واضحة في مختلف العصور الادبية ، وهي تتخذ أشكالا

مكتبتنا العربية

عدة لا نرى حاجة في تبيانها • والتضمنين الذي نواجهه في « باب الاقتباس والتضمنين » من هذه الاشكال التقليدية • وملاك هذا التضمنين البلاغي كما يقرر ابن رشيق في عمدته^(١) : « هو قصدك الى البيت من الشعر أو القسم فتأتي به في آخر شعرك ، أو في وسطه كالتمثل ، نحو قول محمود بن الحسين كشاجم الكاتب :

يا خاضب الشيب والايام تظهره هذا شباب لعمر الله مصنوع
اذكرتني قول ذي لب وتجربة في مثله لك تأديب وتقرير
ان الجديد اذا ما زيد في خلق تبين الناس أن الثوب مرقوع

فهذا جيد في بابه ، وأجود منه أن لو لم يكن بين البيت الاول والآخر واسطة ، لان الشاعر قد دلّ بذلك على أنه متهم بالسرق ، أو على أن هذا البيت غير مشهور ، وليس كذلك ، بل هو كالشمس اشتهارا ، ولو اسقط البيت الاوسط لكان تضمينا عجيبا ، لان ذكر الثوب قد اخرج الثاني من باب الاول الا في المعنى ، وهذا عند الحذاق أفضل التضمنين ، فانما احتذى كشاجم قول ابن المعتز في أبيات له :

ولا ذنب لي ان ساء ظنك بعدما وفيت لكم ، ربي ، بذلك عالم
وها أنا ذا مستعقب متصل كما قال عباس " وأنفى راغم

وأبيات العباس بن الاخنف التي منها البيت المضمن هي قوله :

وصبّ أصاب الحبّ سوداء قلبه فأنحله ، والحبّ داء ملازم
فقلت له اذ مات وجدأ بحبه مقالة نصح جانبها المائم :
تحملّ عظيم الذنب ممن تحبه وان كنت مظلوماً فقل : أنا ظالم

(١) ابن رشيق العمدة ٨٤/٢

مكتبتنا العربية
فأنك ان لم تحمل الذنب في الهوى يفازقك من تهوى وأنفك راغم (١)

فنحن نرى في هاتين المقطوعتين أن ابن المعتز لم يكف بتضمين بيت العباس وحده ، وإنما استوحى روح المقطوعة وقسما من ألفاظها ، وذلك يدل على ما كان فيه الشعراء من التبع لاشعار غيرهم •

وعلى هذا فلا يمكن أن يكون التضمين إلا لونا من ألوان التقليد ، ولا نظن أن الشاعر المبتكر يستعين بهذه الوسيلة في فنه ، ومن أجل ذلك يذكر ابن رشيق مفهوما آخر للتضمين يعتبره أجود مما ذهب إليه حيث يقول (٢) :

« وأجود منه أن يصرف الشاعر المضمّن عن معنى قائله الى معناه ، نحو قول

بعض المحدثين ، ونسبه قوم الى ابن الرومي :

يا سائل عن خالد عهدى به رطب العجان وكفه كالجلمد
كالأقحوان غداة غب سماءه جفت أعاليه وأسفله ندى

وابن الرومي ، أو الشاعر الآخر المحدث قد صرف - كما يقول ابن رشيق -

قول النابغة في صفة الثغر :

تجلو بقادمتي حمامة أيتكة بمر دأ أسف لثانه بالاثمد
كالأقحوان غداة غب سماءه جفت أعاليه وأسفله ندى

الى معناه الذي أراد •

ولست أدري ما وجه الجودة في هذا الصرف الذي تفضحه العبارات

المتشابهة !! وليس هذا إلا التقليد الذي عبر عنه ابن رشيق بعبارته الفنية المذكورة •

وليس أدل على التقليد الفاضح من الشعراء الذين يضمنون قسيما كما فعل

الصولي :

(١) المصدر السابق

(٢) المصدر السابق

خلقت على باب الأمير مكتبتها العربية

« قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل »

إذا جئت أشكو طول ضيق وفاقه

« يقولون : لا تهلك أسي وتجمل »

ففاضت دموع العين من سوء دهم

« على النحر حتى بلّ دمعى محملى »

لقد طال تردادى وقصدى اليكم

« فهل عند رسم دارس من معول »

والشاعر فى تضمينه هذا ، والذي لا يدل الا على التقليد والتبع الواضح ،

قلّ أن يناسب بين ماله وما أخذه •

وهناك ركن آخر من أركان هذا التضمين ، وهو أن يقلب الناظم بيتا فيضمّنه

معكوسا ، نحو قول العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان لمسلمة بن عبد الملك :

لقد انكرتنى انكار خوف يضم خشاك عن شتى وذلى

كقول المرء عمرو فى القوافي لقيس حين خالف كل عدل

« عذيرك من خليلك من مراد أريد حياته ويريد قتلى »

والبيت المضمّن لعمرو بن معدى كرب الزبيدى ، يقوله لابن اخته قيس بن

زهير بن هيرة بن مكشوح المرادى ، وكان بينهما بعد شديد وعداوة عظيمة ، وحقيقته

فى شعر عمرو :

أريد حياته ويريد قتلى عذيرك من خليلك من مراد (١)

وابن رشيق فى العدة يفصل فى التضمين فيذكر منه اشكالا عدة ، وهى فى

مجموعها تدل على التقليد والمحاكاة • ونحن نتجزئ بهذا القدر من الامثلة ،

(١) المصدر السابق

والذى ذكرناه يعطى صورة موجزة عن التضمنية فى باب الاخذ والاستعانة بآثار الآخرين • ولم يلجأ كثيرا الى هذه الوسيلة ، الا الشعراء المتخلفون الذين حرموا الابتكار والتجويد ، على أن على بن عيسى الرمانى يعد التضمنين بابا من أبواب البلاغة التى تنحصر عنده فى عشرة ، غير أن مفهوم التضمنين عنده مفهوم كلامى محض كما يعبر عنه بقوله (١) :

« تضمنين الكلام هو حصول معنى فيه من غير ذكر له باسم او صفة هى عبارة عنه • والتضمنين على وجهين : أحدهما ما كان يدل عليه الكلام دلالة الاخبار ، والآخر ما يدل عليه دلالة القياس • فالاول كذكرك الشئ بأنه مُجدَث ، فهذا يدل على المحدث دلالة الاخبار ، والتضمنين فى الصفتين جميعا ، الا أنه على الوجه الذى بينّا • وكذلك سبيل المكسور ومنكسر ، وساقط ، ومستقط •

• • • • •
واما التضمنين الذى يدل عليه دلالة القياس فهو ايجاز فى كلام الله عز وجل خاصة ، لانه تعالى لا يذهب عليه وجه من وجود الدلالة ، فنصبه لها يوجب أن يكون قد دل عليها فى كل وجه يصح أن يدل عليه • وليس كذلك سبيل غيره من المتكلمين بتلك العبارة ، لانه قد يذهب اليه دلالتها من جهة القياس ولا يخرجها ذلك عن أن يكون قد قصد بها الابانة عما وضعت له فى اللغة من غير أن يلحقه فساد فى العبارة • وكل آية فلا تخلو من تضمنين لم يذكر باسم او صفة ، فمن ذلك : « بسم الله الرحمن الرحيم » قد تضمن التعليم لاستفتاح الامور على التبرك به والتعظيم لله بذكره ، وانه أدب من آداب الدين وشعار للمسلمين ، وأنه اقرار بالعبودية واعتراف بالنعمة التى هى من أجل نعمة ، وأنه ملجأ الخائف ومعتمد للمستنجع » •

وواضح من هذين القسمين أن « الرمانى » اعتمد على منهج كلامى فى

(١) النكت فى أعجاز القرآن ٩٤ فى كتاب « ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن » •

تذهب به الى أن المفعول متضمن معنى كلفنا العكز ذلك نصه على أن الآية تتضمن معاني أخرى وأنه بينها في كتابه « الجامع لعلم القرآن » كما ذكر في آخر هذا الفصل .
أما مدلول الاصلاح في « العروض » فهو يستند على ما قرره العروضيون في أن البيت في القصيدة انما هو شعر قائم بنفسه ، وأن من عيوب القافية عندهم أن البيت لا يتم معناه الا بالذي يليه ، ويسمون هذه الظاهرة في القوافي تضمينا^(١) .
ويتفق أغلب المعنيين بالقوافي ، على أن هذا عيب من عيوب القوافي وينشدون على هذا قول الشاعر :

وليس المال فاعلمه بمال من الاقوام الا للذي
يريد به العلاء ويمتته لا قرب اقربيه وللقصى

فضمن بالموصول والصلة على شدة اتصال كل واحد منهما بصاحبه .
وينقل لنا صاحب التاج خلافا طويلا حول جواز التضمين في القوافي أو عدمه ، والذي يعيننا من هذا ، هو أن هذه الظاهرة كثيرة في الشعر العربي ، والشاعر مضطر الى هذا في ظروف خاصة ، ما بقى ملتزما بالوزن والقافية .

التضمن في اللغة والنحو : مركز تحقيقات كميوتير علوم إسلامي

عرضنا في القسم الاول للتضمن في البلاغة والعروض ، ونعرض الآن في هذا الفصل الى القسم الثاني من البحث وهو التضمن في اللغة والنحو . وفي الحق أن هذا القسم غير مستقل عن الاول من حيث بعده عن البلاغة واتصاله بالمباحث اللغوية والنحوية ، فقد امتدت اليه يد البلاغة ، فناقشت اصوله في ضوء العقلية البلاغية التي شاعت في المنهج اللغوي والنحوي ، ومعلوم ان المنهج البلاغي يستدعي البحث في النصوص الادبية عن الصور البيانية والقيم الجمالية .

ومعلوم ايضا ان الجانب النحوي واللغوي في موضوع التضمن قد تعرض

(١) انظر مادة « ضمن » في لسان العرب وتاج العروس .

لسوالات بلاغية ، كالاستفسار عن ماهيته ، ^{مكتبتنا العربية} حقيقة هو أم مجاز ؟ وهل القيد فيه
حال متزعة من المنقول منه ؟ وما الى ذلك من الامور البلاغية المحضة .

ولكى نعطي فكرة واضحة عن هذا القسم ، رأينا أن نعرض لمواضع التضمن
في الاستعمال لنخلص الى تحديده وضبطه وتعريفه ، ثم نقرر حقيقة هو أم مجاز ؟
رغبة منا في ان نصل بعد هذا الى أنه قياسيا يجوز ان يقاس على ما اشتهر استعماله ،
أو أنه سماعي لا ينقاس عليه .

التضمن في الاستعمال :

لم يسلم منهج الباحثين في علوم العربية من قيود المنطق وآثار الفلسفة .
ذلك ان العقلية الفلسفية قد غزت سائر العلوم ، فقد استهوى منطق ارسطو وفلسفة
الفلاسفة الآخرين الباحثين في الثقافة العربية الاسلامية ، فتأثروا بهذا في سائر
علومهم . وكان من نتائج ذلك أن تأثر البحث اللغوي والنحوي بهذا المنهج الدخيل
على النحو واللغة ، وكان تأثيره في النحو واللغة سلبيا ، فقد احوال كثيرا من الابواب
اللغوية والنحوية مادة جامدة بعيدة عن الحياة ، وبعيدة عن طبيعة اللغة السهلة
السمحة . ومن أجل هذا ظهرت في علوم العربية قواعد واحكام لم تكن وليدة
الاستقراء الشامل الواسع للغة ، كقولهم مثلا : ان الفعل « كذا » يأتي لازما ولا
يأتي متعديا ، وان الحرف « كذا » يأتي لمعنى ولا يأتي لغيره وهكذا ، فاذا فطنوا ان
هذا الفعل وذاك الحرف ، قد أتيا على غير ما ذكروا ، فزعوا الى طريقتهم ومنهجهم
يؤولون ويعملون ، كأن يقدرين محذوفاً ، او يحذفون ما هو مذكور . وليس هذا
مجال عرض المشكلات اللغوية والنحوية التي افسدها المنهج المنطقي ، فهي كثيرة
معروفة للباحثين .

وبحث التضمن الذي ندرسه يظهر اضطراب علماء العربية القائلين به ، فهناك
نصوص تند عما وضعوه من احكام وقيود ، لم يجدوا الى حلها غير القول بالتضمن
ولا بد للباحث في علم الدلالات (Sémantique) بغية الافادة منه في اللغة

مكتبتنا العربية

العربية ، أن يعاني صعوبة البحث اذا ما أراد أن يخلص للمنهج السليم ولا سيما في عصورنا الحديثة .

فأول مجال للتضمن ، هو حروف المعاني ، او حروف الصفات على حد تعبير ابن قتيبة (١) .

(١) الحرف « في » تضمن معنى « على » كقوله تعالى : « ولأضلبنكم في جذوع النخل » (٢) أي على جذوع النخل . قال الشاعر :
وهم صلبوا العبدى في جذع نخلة فلا عطست شيان الا بأجدعا
وقال عنتره :

بطل كأن ثيابه في سرحة يُحذى نعال السبّ ليس بتوأم
أي على سرحة من طوله .

(٢) الحرف « الى » تضمن معنى « في » ، كقول النابغة :
فلا تتركني بالوعيد كأنني الى الناس مطلى به القار أجرب
يريد في الناس ، وقال طرفة بن العبد :

وان يلتق الحى الجميع تلاقتي الى ذروة البيت الكريم المصمّد
أي في ذروة البيت الكريم الذى يُصمّد اليه ويقصد .

(٣) الحرف « على » تضمن معنى « عن » ، كقول القحيف العقيلي :
اذا رضيت عليّ بنو قشير لعمر الله أعجبنى رضاها (٣)
أي رضيت عنى .

(٤) حرف الباء تضمن معنى « عن » كقوله تعالى : « فاسأل به خيرا » (٤)
أي عنه .

(١) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ٤٢٦ ، أدب الكاتب ٥٠٢

(٢) سورة طه ٧١

(٣) السيوطي ، همع الهوامع ٢٨/٢

(٤) سورة الفرقان ٥٩

قال علقمة بن عبدة :

فإن تسألوني بالنساء فأننى بصير بأدواء النساء طيب
أى عن النساء •

وقال ابن أحمر :

تسائل يابن أحمر من رآه أعارت عينه أم لم تعارا
(٥) الحرف « عن » تضمن معنى « الباء » كقوله تعالى : « ولا تجهر له
بالقول كجهر بعضكم لبعض » (١) أى لا تجهروا عليه بالقول ، والعرب تقول :
سقط فلان لفيه ، أى على فيه • قال الأشعث بن قيس :

تناولت بالرمح الطويل ثيابه فخر صريعا لليدين وللقم
أى على اليدين والقم • وقال الطرماح بن حكيم :

كأن مخواها على ثفنتها معرّس خمس وقعت للجناحين
(٦) الحرف « الى » تضمن معنى « مع » كقوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالهم
الى أموالكم » (٢) أى : مع أموالكم وكقوله تعالى : « من أنصاري الى الله » (٣)
أى مع الله • والعرب تقول : « الذود الى الذود ابل ، أى : مع الذود •
قال ابن مفرّغ :

شدخت عزة السوابق منهم فى وجوه الى اللمام الجعاد (٤)
أى مع اللمام الجعاد •

(٧) حرف « اللام » تضمن معنى « الى » كقوله تعالى : « بأن ربك
أوحى لها » (٥) ، أى أوحى اليها •

(١) سورة الحجرات ٢

(٢) سورة النساء ٢

(٣) سورة آل عمران ٥٢

(٤) ورواية اللسان الى الكمام الجعاد ، انظر مادة « شدخ » •

(٥) سورة الزلزلة ٥

مكتبتنا العربية

قال تعالى : « الحمد لله الذى هدانا لهذا » (١) ، أى الى هذا ، كما قال

تعالى : « وهداه الى صراط مستقيم » (٢) .

(٨) الحرف « على » تضمن معنى « من » كقوله تعالى : « اذا اکتالوا على

الناس يستوفون » (٣) أى مع الناس .

وقال صخر الغي :

متى ما تنكروها تعرفوها على أقطارها علق نفيث

أى من أقطارها .

(٩) الحرف « من » تضمن معنى « الباء » ، كقوله تعالى : « يحفظونه من

أمر الله » (٤) أى بأمر الله . وقال تعالى : « يلقي الروح من أمره » أى بأمره .

(١٠) حرف « الباء » تضمن معنى « من » ، كقول ابى ذؤيب الهذلى :

شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لجج خضر لهم نسيج

وقال تعالى : « عينا يشرب بها المقربون » (٥) ، أى منها .

نجتزى بهذه الشواهد فتيين فيها أن النحويين وعلماء اللغة فى حيرة

واضطراب ، فهم يرون حرفا قد استعمل فى مكان آخر ، ولا بد لهم أن يتخلصوا

من هذه الحيرة وهذا الاضطراب بوسيلة من وسائلهم .

والبصريون يمنعون انابة الحروف الجارة عن بعض قياسا ، كما لا تنوب

حروف الجزم والنصب بعضها عن بعض ، وما أوهم ذلك محمول على تضمين

الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف او على شذوذ النيابة ، والكوفيون يجوزون

(١) سورة الاعراف ٤٣

(٢) سورة النمل ١٢١

(٣) سورة المطففين ٢

(٤) سورة الرعد ١١

(٥) سورة المطففين ٢٨

مكتبتنا العربية

نيابة بعضها عن بعض قياساً (١) ، وقد رجح ابن هشام مذهبهم فقال : ومذهبهم أقل تعسفاً ، (٢) •

ولقد اختلف البصريون والكوفيون في هذا الباب اختلافاً كبيراً ، واختلافهم يشير الى ان هؤلاء جميعاً لم يستقرئوا كلام العرب استقراءً وافياً ليسجلوا هذه الاستعمالات وليقيدوها بقائلها ، وبالزمن الذي قيلت فيه ، مهمتين بموضوع اللغات الخاصة التي اجازت استعمالاً دون آخر •

قال ابن الانباري في الانصاف : « ذهب الكوفيون الى أن (من) الجارة يجوز استعمالها في الزمان والمكان ، وذهب البصريون الى أنه لا يجوز استعمالها في الزمان ، اما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا : الدليل على أنه يجوز استعمال (من) في الزمان أنه قد جاء ذلك في كتاب الله تعالى وكلام العرب • قال الله تعالى : « لمسجد اسس على التقوى من اول يوم أحق أن تقوم فيه » (٣) وقال زهير :

لمن الديار بقنّة الحجر
فدل على أنه جائز •

واما البصريون فاحتجوا بأن قالوا : أجمعنا على أن « من » في المكان نظير « مذ » في الزمان ، لان من وضعت لتدل على ابتداء الغاية في المكان ، كما ان مذ قد وضعت لتدل على ابتداء الغاية في الزمان ، ألا ترى انك تقول : ما رأيته مذ يوم الجمعة ، فيكون المعنى ان ابتداء الوقت الذي انقطعت فيه الرؤية يوم الجمعة ، كما تقول : ما سرت من بغداد ، فيكون المعنى : ما ابتدأت بالسير من هذا المكان • فكما لا يجوز أن تقول ما رأيته من يوم الجمعة ، كذلك لا يجوز أن يقول ما سرت مذ بغداد •

(١) المخزومي ، مدرسة الكوفة ٣٢٦ •

(٢) ابن هشام ، المغنى حرف الباء ١٠٣

(٣) سورة التوبة ١٠٨

(٤) ابن الانباري ، الانصاف في مسائل الخلاف ٢٢٨

مكتبتنا العربية

وهذا الخلاف والجدل يظهر أن الكوفيين اسد رأيا وأصوب منهجا ، ذلك

أنهم اعتمدوا استعمالات بنوا عليها رأيهم ، وهذا وجه علمي صائب •

اما البصريون فانهم تمسكوا بجدل وبأسلوب منطقي واعتمدوا على استعمالات

اصطنعوها هم انفسهم ولم يعتمدوا على امثلة مستقرأة في الثابت من النصوص

والاستعمالات •

وقد استمر الكوفيون على مذهبهم في انابة كلمة عن اخرى ، فالفراء قد

أجاز أن تقع « ليت » في موضع « تمنيت » ، وبهذا علل كون « ليت » أقوى ادوات

النصب عنده ، وقد اجاز نصب المسند اليه والمسند بها مستشهدا بقول الشاعر :

يا ليت أيام الصبا رواجعا (١)

لأنها شربت معنى تمنيت ، فاذا قيل : ليت زيدا قائما ، كان معناه : تمنيت

قيام زيد وقد ورد من هذا قول الشاعر :

إذا اسود جنح الليل ولتأت ولتكن خطاك خفافا ان حراسنا اسدا

وقد جاء في الحديث : « ان فعر جهنم لسبعين خريفا » ، وقولهم ان زيدا

أخانا (٢) • وقد أنابوا فعلا عن فعل آخر على سبيل التضمين ، وهو موضوع

يكشف أن علماء العربية لم يتعقبوا الاستعمالات ويقيدها كما اشرنا ، ومن أجل

فان وجدوا شيئا خرج عما قرروه من قواعد وضوابط احتالوا عليه بوسيلة من

وسائلهم ، ولذلك قالوا بالتضمين :

قال الزمخشري : « من شأنهم أن يضمّنوا الفعل معنى فعل آخر فيجرونه

مجراه ويستعملونه استعماله مع ارادة معنى المتضمن • قال والغرض في التضمين

اعطاء مجموع معنيين ، وذلك أقوى من اعطاء معنى ، ألا ترى كيف رجع معنى

(١) معاني القرآن - ورقة ٤٥ عن مدرسة الكوفة ، السيوطي ، الهمع

١٣٤/١ •

(٢) السيوطي ، الهمع ١٣٤/١ ، شرح الرضى على الكافية ٢/٣٤٦-٣٤٧ •

مكتبتنا العربية

(ولا تعد عيناك عنهم) ^(١) الى قولك : ولا تقتحمهم عينك مجاوزتين الى غيرهم ، وكذلك قوله تعالى (ولا تأكلوا اموالهم الى اموالكم) ^(٢) أى لا تضموها اليها آكلين » •

وأنت ترى أن حقيقة التضمن عند الزمخشري قائمة على اساس ضعيف اذ كيف يجوز ان يتضمن الفعل فى جملة واحدة معنيين ، ولم يفت هذا الاضطراب المعنوى على الاقدمين انفسهم ، فقد ذكر الشيخ سعد الدين التفتازانى فى حاشية الكشف : فان قيل الفعل المذكور ان كان مستعملاً فى معناه الحقيقى فلا دلالة على الفعل الآخر ، وان كان فى معنى الفعل الآخر فلا دلالة على معناه الحقيقى ، وان كان فيهما جميعاً لزم الجمع بين الحقيقة والمجاز •

والسيوطى فى الاشباه والنظائر يورد اقوالاً متضاربة تظهر بوضوح مدى حيرة الاقدمين ازاء الاستعمالات والاساليب ، ومن أجل ذلك لم يتفقوا على حقيقة التضمن وطريقته ، فقد نقل قول ابن جنى فى الخصائص وهو : « اعلم أن الفعل اذا كان بمعنى فعل آخر ، وكان احدهما يتعدى بحرف ، والآخر بآخر ، فان العرب قد تتسع فتوقع احد الحرفين موقع صاحبه ايذاناً بان هذا الفعل فى معنى ذلك الآخر ، فلذلك جىء معه بالحرف المعتاد على ما هو فى معناه وذلك كقوله تعالى (أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم) ^(٣) وأنت لا تقول رفثت الى المرأة ، وانما تقول رفثت بها او معها لكنه لما كان الرفث هنا فى معنى الافضاء وكنت تعدى أفضيت بـ (الى) كقولك : أفضيت الى المرأة ، جئت بالحرف (الى) مع الرفث ايذاناً واشعاراً أنه بمعناه » ^(٤) •

(١) سورة الكهف ٢٨ •

(٢) سورة النساء ٢

(٣) السيوطى ، الاشباه والنظائر ١/١٠١

(٤) السيوطى ، الاشباه والنظائر ١/١٠٤

مكتبتنا العربية

وقد وقع مجمع اللغة العربية في الحيرة نفسها ولم يستطيعوا أن يدرسوا المشكلة دراسةً أسلوبية حديثة ، فقد اخذوا بالتضمن ، وقالوا بتضمن افعال كثيرة لمعان كثيرة (١) .

وتزداد طائفة الافعال المتضمنة لمعان أخرى اذا ما فتشنا عن هذه الافعال في كتب البلاغة .

فقد ذكر سعد الدين التفتازاني : ان الظهور بمعنى الزوال كما في قول الحماسي :

وذلك عارٌ يا ابن ربطة ظاهر

وقول أبي ذؤيب : وتلك شكاة ظاهر عنك عارها ، أي زائل (٢) .

ولم يقتصر الأمر على تضمين فعل بمعنى فعل آخر ، وانما تعداه الى صيرورة فعل لازم فعلاً متعدياً او بالعكس .

ومن ذلك ما ذكره مقال مجمع اللغة العربية : « وجاز تضمين اللازم المتعدي مثل : فانه سفّه نفسه أي اهلكها . »

وذهب ابن هشام الى أبعد من هذا ، اذ قال : « وزعم قوم من المتأخرين منهم خطاب المارديني أنه يجوز تضمين الفعل المتعدي لواحد معنى « صير » ويكون من باب « ظن » فأجاز « حفرت وسط الدار بئراً » أي صيرت . وقد اجاز « بنيت الدار مسجداً » ، وقطعت الثوب قميصاً ، وقطعت الجلد نعلاً » وجعل منه قول ابي الطيب :

فمضت وقد صبغ الحياء بياضها لوني كما صبغ اللجين العسجدا (٣)
وأنت ترى مما عرضنا أن مواضع التضمن واسعة ، وهذا الاتساع لا يدل

(١) دور الانعقاد الاول ٢٠٦

(٢) التفتازاني ، شروح التلخيص ٩٧/٤

(٣) السيوطي ، الاشباه والنظائر ١٠٣/١

مكتبتنا العربية

على سعة البحث فى الموضوع أو أنهم تعمقوا فى المشكلة فعرضوا لوجوهها جميعا ،
وانما يدل على حيرتهم فى البحث عن المعانى والاساليب ، وربما كشف عن
جمودهم ووقوفهم عند استعمالات لا يتعدونها الى غيرها ، وما خلا هذه
الاستعمالات فهو بين أن يكون محمولا على الخروج والخطأ والتجاوز ، أو أنه
داخل فى باب التضمنين ان لم يجدوا وجهاً الى تخطئته وخروجه كأن يكون من
كلام الله ، كقوله تعالى : « أفلم يأس الذين آمنوا » (١) وقد ذكر المفسرون أن
معناه : أفلم يعلم وقد قالوا : انها لغة النخع وهوازن ، وقال سحيم بن وثيل
اليربوعي :

أقول لهم بالشعب اذ يأسرونى الم تياسوا انى ابن فارس زهدم
وقد روى « الم تعلموا » على الوجه الصحيح ، كما ان ابن عباس قد قرأ :
(أفلم يتبين الذين آمنوا) ، وقد انكر الفراء كون « يأس » بمعنى يعلم •
وقد تبين ان التضمنين أن تستعمل مادة فعلاً كان او اسماً او اداة محل غيره
مع قرينة ، قولية او حالية ، تشير الى المعنى الذى استعمل ، وهذا الحد فى التضمنين
يثير الاستفسار عن المادة المستعملة من حيث الحقيقة والخروج عنها الى المجاز او
الكتابة او الاستعارة •

لقد اختلف الاقدمون فى حقيقة التضمنين من حيث كونه حقيقة او أنه
خروج عن الحقيقة الى غيرها توسعاً ومجازاً ، ونستطيع أن نخلص الى مذاهب
ثلاثة فى الموضوع : فالمذهب الاول يقرر أن المادة المتضمنة قد استخدمت على
الوجه الحقيقى مع قطع الصلة بينها وبين الاصل • والمذهب الثانى يقرر أن المادة
قد استخدمت على الوجه المجازى مع القرينة الدالة • والمذهب الثالث يجمع
بين المذهبين فيقرر أن المادة مستخدمة على الحقيقة والمجاز فى آن واحد •

مكتبتنا العربية
اما المحدثون الذين أقرّوا التضمين ، فقد كانوا يريدون الاخذ به للحجة
اليه ولأن متطلبات العصر تستدعى أن تسعف العربية بمادة جديدة ضخمة حتى
تساير الحياة الحاضرة ومتطلباتها المعقدة الكثيرة • وقد فعل هذا مجمع اللغة
العربية المصرى ، وقال بقياسية التضمين •

وتظهر هنا مسألة مهمة تتعلق بهذه « القياسية » التى يراد منها أن تستخدم
استخداماً فنياً (Technique) فى الحياة العامة ، وما جد فيها من ضروب العلم
التجريبى والنظرى •

واذا جاز هذا ، جاز ان نتوسع فى الموضوع وندخل هذا فى اللغة الادبية
والاسلوب الفنى الذى يعتمد على خلق الصور الادبية التى تستمد عناصرها من
خيال الاديب الذاتى ، ومما توحى له بيئته ومجتمعه •

وينجم عن هذا أن لابد أن تؤرخ الالفاظ وتقيد بعصورها وبقائلها حاسبين
للأقاليم والمجتمعات حسابها فى الاستعمالات وما شاع بينها من فنون القول ، وبهذا
تفيد المعجمية العربية فائدة جليلة ، فيعاد بناء المعجمات المطولة على أساس جديد ،
بمراعاة الظروف التاريخية وتطورها وانعكاس هذه الظروف المتطورة فى المادة
اللغوية ، ومن هنا تأتى ضرورة القيام بمعجم تاريخى •